الأخذ بالأسباب في ضوء الهجرة النبوية الشريفة

١٠ من المحرم ١٤٣٧هـ الموافق ٢٣من أكتوبر ٢٠١٥م

أولا: العناصر:

١. الهجرة نموذج لانتصار الحق على الباطل.
٢. من مظاهر الأخذ بالأسباب التخطيط الجيد.
٣. الأنبياء وسنة الأخذ بالأسباب.
٤. الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر.

ثانيا: الأدلة:

من القرآن الكريم:

١. قال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[التوبة: ٤٠].
٢. وقال تعالى: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[الأنفال: ٣٠].
٣. وقال تعالي: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}[المؤمنون:٢٧- ٢٩]
٤. وقال تعالى: { وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا }[مريم: ٢٥].
٥. وقال تعالى: { فَأَتْبَعَ سَبَبًا}[الكهف: ٨٥].
٦. وقال تعالى:{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [إبراهيم: ١٢]
٧. و قال تعالي:{مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}[الأحزاب:٢٣].

من السنة النبوية:

١- عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا ».

تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار. [رواه الترمذي].

٢- وعنْ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا فِي الْغَارِ : «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا» [رواه البخاري].

٣- وعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أَطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» (رواه الترمذي).

٤- وعَنِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : رَدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ فَقَالَ : مَا قُلْتَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، وَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.» [رواه النسائي] .

٥- وعَنْ أَبِي خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟ قَالَ: « هي مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ». [رواه الترمذي].

٦- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ فَقَالَ : « أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ». قَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ « ائْتِنِي بِهِمَا ، فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ وَقَالَ « مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ »؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ : « مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ »؟ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأنصاري وَقَالَ : « اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ ». فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : « اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا »، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): « هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ ». (رواه أبو داوود).

ثالثا: الموضوع:

إن المتدبر لمعاني الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة يستنبط منها دروساً عظيمة ، ويستخلص منها فوائد جمة، ويلحظ فيها حكماً باهرة يستفيد منها الفرد والمجتمع في شتى مجالات الحياة ، فهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن هجرة مكانية ـ مجرد انتقال من مكان إلى مكان ـ فحسب كما يعتقد الكثير من الناس، بل كانت في حقيقتها حلقة من حلقات الصراع الدائم والمستمر بين الحق والباطل ، وهذا الصراع والتدافع بين الحق والباطل سنة إلهية نافذة ، قد يظن البعض فيها قوة الباطل ، لكن الغلبة دوماً تكون لأهل الحق ، وما ذلك إلا ليتميز أصحاب الصبر والهمم ، قال سبحانه : { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج: ٤٠].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ }[الصافات:١٧١ـ ١٧٣]. وقال تعالى : { كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [المجادلة: ٢١] ، فجاءت الهجرة لتعلن انتصار الحق على الباطل ، وانتصار الحرية على العبودية ، وانتصار الإيمان على الكفر، فكانت الهجرة حربًا على الضعف الإنساني في شتَّى صوره وألوانه، وانتصارًا للحق مهما بطشتْ به قوة الباطل، و تأسيسًا لأول دولةٍ دعائمُها العدلُ والعلم، والحريةُ والحضارة، والإخاءُ والمساواة، والرحمة والتوادد ، لتظل الهجرة خير دليل على أن أصحاب الهمم والعزيمة لا تتوقف مسيرتهم.

ولم تكن الهجرة النبوية معجزة ربانية فحسب، ولا عملاً بشريًّا مجردًا فحسب، فلقد اجتمع فيها الأمران التأييد الإلهي بعنايته ورعايته ، والتخطيط البشري متمثلاً في الأخذ بالأسباب المعينة على إتمام الأمر بنجاح.

والأخذ بالأسباب دون الاعتماد عليها عبادة واجبة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وهي سنة من سنن الله الكونية ، فالدنيا وما أَوْدعه الله فيها من المنافع والسعي فيها ما هو إلا سبب للنجاح في الآخرة ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع كلها أسباب موصلة إلى الغاية العظمى وهي رضوانِ الله عز وجل ، والدواء ما هو إلا سبب للشفاء ، والمدارسة سبب للنجاح ، وهكذا جعل الله لكل شيء سببا.

ولقد طبق نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) سنة الأخذ بالأسباب في الهجرة تطبيقا عمليا في أبهى صوره وأكمله ، حيث خطط للمهمة تخطيطاً جيداً ، على الرغم من يقينه أن الله كافيه ؛ ليكون ذلك درساً للأمة أن حسن التخطيط من دعائم التوكل على الله والأخذ بالأسباب، فاتخذ كل الوسائل التي تعينه على إنجاح الهجرة ، وفي الوقت نفسه كان مع الله (عز وجل) يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح ، وكان كل أمر من أمور الهجرة مدروساً بعناية فائقة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعنصر التوقيت المناسب للخروج للهجرة كان مختارا بعناية من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث جاء (صلى الله عليه وسلم) إلى بيت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) في وقت شديد الحر حتى لا يراه أحد ، وأمر (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر (رضي الله عنه) أن يُخرِج مَنْ عنده ، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ : لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِلاَّ يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا إِلاَّ وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) فِي هَذِهِ السَّاعِةِ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ ، يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ ، قَالَ: أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ ، قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: الصُّحْبَةَ) (رواه البخاري في صحيحه).

فبلغ الاحتياط عند النبي (صلى الله عليه وسلم) مداه ، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم ، والاستعانة بشخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة ، وتم وضع كل فرد في عمله المناسب ، الذي يحسن القيام به على الوجه الأكمل ، فعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ينام مكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فكان سببا للتمويه على المشركين وخداعهم ، حتى خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) تحرسه عناية الله وهم نائمون، وأبصار المشركين معلقة بمضجع الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وعبد الله بن أبي بكر (رضي الله عنه) ودوره العظيم في استطلاع الأخبار ورصدها ، وأسماء ذات النطاقين (رضي الله عنها) وحملها الغذاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأبيها الصديق (رضي الله عنه) ، وعامر بن فهيرة: راعي الغنم ، وقائد سلاح التمويه والذي قام بدوره وبأغنامه بتبديد آثار سير النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه الصديق (رضوان الله عليه) ، كيلا يتفرسها القوم ، وعبد الله بن أريقط دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ، يأخذ الركب المبارك من غار ثور إلى يثرب مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إن ما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) من تدبير للأمور على نحو رائع ودقيق، وبأسلوب حكيم، ووضعه لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، واقتصاره على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف ، لهو أكبر دليل على أخذه (صلى الله عليه وسلم) بالأسباب ، ثم اعتماده وثقته في الله (عز وجل) ، وعَنْ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»[رواه البخاري]. ومن ثم كانت عناية الله تحيط به في كل مكان.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب في حياة المسلم ، وهو من علامات حسن التوكل على الله عز وجل ، والرضا بقضائه وقدره ، فلا يعني الرضا بالقضاء والقدر أن نضعف أمام المحن، أو نستسلم لليأس ، ولكن عين الرضا هو التوكل على الله (عز وجل) والأخذ بالأسباب ، فطلب الشفاء صورة من صور التوكل على الله والأخذ بأسباب الدواء ، وفي نفس الوقت لا يرد من قدر الله شيئا ، فعَنْ أَبِى خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا قَالَ : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » [رواه الترمذي].

ولم يرض النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يقف الإنسان عاجزا لا يدفع عن نفسه ويعتقد أن هذا من تمام الرضا، ولكنه (صلى الله عليه وسلم) ينهى عن العجز والضعف ، لما فيهما من مظاهر ذل لا تليق بمسلم أبدا ، فعَنِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ ، فَقَالَ : مَا قُلْتَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، وَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» [رواه النسائي] .

ولما جاءه (صلى الله عليه وسلم) رجل يشكو حالة فقره – وكأنه كان معطلا للأسباب – ، فأرشده (صلى الله عليه وسلم) عمليًّا إلى ضرورة السعي وضرورة الأخذ بالأسباب ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِىَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ فَقَالَ : « أَمَا فِى بَيْتِكَ شَىْءٌ » قَالَ : بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ : « ائْتِنِى بِهِمَا ، فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ وَقَالَ : « مَنْ يَشْتَرِى هَذَيْنِ » قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ « مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأنصاري وَقَالَ :« اشْتَرِ

بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِى بِهِ ». فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : « اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : « هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِىءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِى وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِى فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِى غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِى دَمٍ مُوجِعٍ » (رواه أبو داوود).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه بالأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي قد يراها البعض دون جدوى أو فائدة ، فعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أَطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ (يقصد ناقته) قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» (رواه الترمذي). ولهذا عاب سيدنا عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه) على جماعة من أهل اليمن، كانوا يحجون بلا زاد فذمهم؛ قال معاوية بن قرة: لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل الذي يلقي حَبَّه في الأرض ثم يتوكل على الله.(رواه ابن أبي الدنيا). ورأى (رضي الله عنه) قومًا قابعين في رُكن المسجد بعدَ صلاة الجمعة، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المُتوَكِّلون على الله، فعَلاهم عمر (رضي الله عنه) بدِرّته ونَهَرَهم، وقال: لا يَقعُدنّ أحدُكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علِمَ أن السماءَ لا تُمطِرُ ذهبًا ولا فضّة، وإن الله يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}[الجمعة :١٠] .

إن الإسلام دين لا يعرف التواكل ، بل يحاربه وينبذه ، ولا يعرف التواني والكسل والخمول ، وإنما هو دين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:٩٧]. وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا ». تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار. [رواه الترمذي].

والأخذ بالأسباب أيضًا سنة عن الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، فهذا نبي الله موسى (عليه السلام) أمره ربه (سبحانه) أن يضرب البحر بعصاه حيث أتبعه فرعون وجنوده يريدون إلحاق الضرر به وبمن آمن معه ، وما العصى إلا سبب من أسباب النصر والتأييد الإلهي ، قال تعالى:{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

*إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }[الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨] ، ولو شاء الله أن يؤيد نبيه موسى (عليه السلام) بالنصر دون أن يأمره بضرب العصى لفعل ، ولكنه يُعلِّم أنبياءه وعباده الصالحين سنة الأخذ بالأسباب ، لتأخذ الأسباب نصيبها من حياة الإنسان .

ومريم بنت عمران (عليها السلام) أمرها ربها تبارك وتعالى وهي فى أشد حالات الضعف والوهن وكانت في حالة المخاض ، أن تهز النخلة لتسقط عليها رطبًا جنيًا، قال تعالى:{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[مريم: ٢٥]. ومن المعلوم أنه لو هز النخلة عشرة رجال من جذعها لما تساقطت ثمرة واحدة ولكنها سنة الأخذ الأسباب.

ألم تر أن الله أوحى لمريم *** وهزى إليك الجذع تسَّاقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها *** جنته ولكن كل شيء له سبب

إن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع سنة الأخذ بالأسباب، وهذه عقيدة يجب أن ترسخ في الأذهان لنقضي بها على مفهوم السلبية والتواكل ويتأكد معنى الإيجابية، و يعمق مفهوم التوكل عند العبد وعدم الاغترار بحوله وقوته، فالأمور مقدرة أزلا بأسبابها الشرعية والدنيوية بمشيئة الله تعالى وحده .

إن المسلمين اليوم وهم يحتفلون بمقدم عام هجري جديد حري بهم أن يفهموا الإسلام فهما صحيحا بعيدا عن الأفكار المغلوطة ، فالإسلام أمر أتباعه بالعمل والسعي لعمارة الأرض ، ولا يعرف الكسل أو الضعف ، فهو دين حضارة ، ولن تتأتى الحضارة إلا بالأخذ بأسبابها معتمدين على الله عز وجل.